

ثقافة اليونان والرومان وأثرهما في طه حسين

الأستاذ محمد عبد الفني حسن

على الرغم من المكانة العظمى التي احتلها الدكتور طه حسين في الأدب العربي ، وعلى الرغم من عمق انتمائه إلى العروبة وإنتاجها الفكري الخصب ، فإنه اتصل بالفكر اليوناني والروماني اتصالاً وثيقاً ، وأخذ عنها ، ونقل منها ، وتمصب لها في كثير من المواطن . ولكنه على شغفه بثقافة اليونان والرومان لم يبغض الثقافة العربية القديمة والفكر العربي حقه . وما وجدتُ موضعاً يشيد فيه الدكتور طه حسين بالفكر اليوناني والأدب الإغريقي إلا وجدت بجانبه مواضع أخرى يُعلي فيها الرجل من قيمة الأدب العربي ويعطيه حقه ، لا على سبيل التعصب لعروبه ، ولكن على سبيل النصفة للحق .

ولا ننسى طه حسين وهو يرد مرة على توفيق الحكيم في عدد من أعداد مجلة الرسالة^(١) فيقول له (فإذا أردت أن تقارن بين العرب والرومان

(١) مجلة الرسالة عدد ١٥ يونيو سنة ١٩٣٣

فأظنك توافقي على أن الأدب العربي الخالص أرقى جداً من الأدب الروماني الخالص . أي أن الأدب الروماني إنما ارتقى حقاً حين أثر فيه الأدب اليوناني . فالرومان تلاميذ اليونان في الأدب والفن والفلسفة . والعرب يشبهونهم في ذلك ، ولكن العرب كان لهم أدب ممتاز قبل أن يتأثروا بالحضارة اليونانية ، ولم يكن الرومان من هذا الأدب الروماني الممتاز (حظ يذكر ..) .

وقضية تقدم الأدب العربي على الأدب الروماني قد تناولها طه حسين أكثر من مرة في أكثر من كتاب أو دراسة . فنراه مرة يقول : (الأدب العربي : شعره ونثره وعلمه وفلسفته ، لا يمكن بحال من الأحوال أن يقل عن الآداب الأربعة القديمة^(١) . بل هو من غير شك متقدم على اللاتيني والفارسي . وإذا لم يكن بد من أن يكون له مناظر ، وأن الأدب العربي ينحني له مع شيء من الإجلال الذي تملؤه العزة ، فهو الأدب اليوناني . وأما الأدب اللاتيني ، فسترون أنه يقوم على تقليد الأدب اليوناني . فهو ليس أدباً مبتكراً ، وإنما خطباء الرومان تلاميذ لخطباء اليونان مهاجروا ، وأبرعهم - وهو سيسرون - تلميذ لأرسططاليس وديموسيتين . ومؤرخوهم وأبرعهم : «تتليف» ، «وتاسيت» تلميذان لهيرودوت ، وتيسيديد . وشعراؤهم وأكبرهم «فرجيل» تلاميذ إهوميروس وغيره من شعراء اليونان . وايس للرومان شعر تمثيلي يذكر . وما وجد عندهم من التمثيل فهو تقليد سييء رديء لتمثيل اليونان ...» (٢) .

(١) هي اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية ، والهندية .

(٢) من حديث الشعر والنثر لطله حسين ص ١٧ ، ١٨

وحين يوازن طه حسين بين الأدب العربي ، والأدب الإغريقي فإنه لا يفضل الشخصية القوية والحيوية التي يتميز بها أدبنا من أدب اليونان القديم ، فنحن حين أخذنا عن هذه الآداب الأربعة القديمة ، وهي : اليونانية ، واللاتينية ، والفارسية ، والهندية لم نكن مجرد ناقلين لا أكثر ، فشخصية العرب ظهرت قوية واضحة المعالم في الشعر والنثر على السواء . فلا يجوز أن يقال عنا إننا مقلدون - كما قلدت الرومان اليونان - ولكننا لم نكد نأخذ عن غيرنا حتى أسغنا ما أخذناه أولاً ، وهضمناه ثم محونا (١) .

وحين ألف طه حسين كتابه : (مستقبل الثقافة في مصر) واتهمه قوم بأنه من دعاة « التغريب » وأنه رسول الثقافة الأجنبية في مصر ، كتب بحثاً قيماً يدافع به عن نفسه ، ويقارن فيه بين الأدب العربي والأدب اليوناني مقارنة منصفة ، ويعود - من جديد - إلى تأكيد الشخصية القوية والحيوية للأدب العربي ، فيقول : (فالأدب اليوناني القديم إذن حيٌ بنفسه . أريد أنه لا يستمد حياته من أمة حية تنميه وتقويه وتضيف إليه ، وإنما يستمد حياته من هذه الشخصية القوية التي وهبها اليونان القدماء ... أما أدبنا العربي فقد عمر بضعة عشر قرناً إلى الآن ، واختلفت عليه في أثناء هذه القرون خطوط كثيرة متباينة ، وجهته ألواناً من التوجيه ، وأخضعته لضروب من التطور ، ولكنه ما زال حياً قوياً ، يستمد حياته وقوته من شخصيته العظيمة ، ويستمد حياته وقوته من هذه الأجيال التي لا تزال حية محتفظة بفضل من قوة ، والتي لا تزال ترعاه وتكلؤه وتنفخ فيه من روحها ، كما تستمد منه

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٨

قوة وأيداً ، فهي تمنحه وتأخذ منه ، وهي تعيش عليه ، وتعيش له ،
وتعيش به ...) (١) .

ومن هنا نعرف أن طه حسين لا ينكر شخصية الأدب اليوناني ، ولا
شخصية الأدب العربي في قوتها وحياتها ؛ ولكن الأدب العربي يزيد على
اليوناني بأن العرب ظلوا على مسار التاريخ وعلى مدار الأجيال يحافظون
على أدبهم ، ويساندونه ، ويدونه دائماً بأسباب القوة والحياة حتى ظل بضعة
عشر قرناً ، لم يمسح ، ولم يتحول ، ولم تصبح لغته العربية لغة قديمة أو
ميتة كبقية اللغات القديمة . فنحن نقرأ أشعار امرئ القيس ، والنابغة ،
وعنترة ، وتأثر بها ، ونكتب على غرارها كما نقرأ وتأثر ونكتب أشعار أحمد
شوقي ، و خليل مطران ، ومعروف الرصافي .

و حين يوازن طه حسين بين بداوة اليونان وبداوة العرب ، فإنه
يقرر أنها بداوة قامت على « الشعر » ، وعلى الشعر وحده . فاليونان والعرب
يتشابهون في هذا الباب تشابهاً كاملاً ؛ لأن الشعر هو أول مظهر من
مظاهر الأمم المتحضرة . وإذا كان عند اليونان « هوميروس » شاعر الإلياذة
وخلفاؤه من الشعراء ، فإن عند العرب امرئ القيس ، والنابغة ، والأعشى ،
وزهير بن أبي سلمى وغيرهم من الشعراء الذين يرى طه حسين أننا نبخسهم
أقدارهم ولا نعرف لهم حقهم (٢) .

غير أن الفرق واضح بين بداوة اليونان وبداوة العرب في رأي
طه ، فبداوة العرب أثرت في العرب وفي الحضارة الإسلامية ولم تجاوزها

(١) طه حسين بين أنصاره وخصومه ، لجمال الدين الألومي ص ٢٨٧ ، ٢٨٨

(٢) قادة الفكر ل طه حسين ، ص ١٧ ، ١٨

إلا قليلاً ، أما بداوة اليونان فقد أثرت في الرومان وفي العرب وفي الإنسانية قديماً وحديثاً ، وستؤثر فيها إلى ما شاء الله (١) ...

ويبدو أن طه حسين في هذا الحصر الضيق لبداوة العرب في الحضارة الإسلامية كان متأثراً بآرائه القديمة في المغالاة بثقافة اليونان ، فقد قال هذا الكلام في سنة ١٩٢٥ في كتابه « قادة الفكر » ونسي - في غمرة هذه الحماسة لليونان - ما كتبه المنصفون من المستشرقين من أمثال جوستاف لوبون وميديو ، وفالينو ، وكرتشكوفسكي ، والدكتورة زيجريد هونكه وغيرهم عن الحضارة العربية .

والحق أن حب الدكتور طه حسين للثقافة اليونانية ، وتمحيزه الأدب اليوناني كان حياً قديماً فرضه عليه دراسته لليونان والرومان وتاريخهم وآدابهم في جامعتي باريس ، ومونبيليه ، وهو ما يزال وقتها متحمساً لثقافات أجنبية نهل منها ، ولكن الزمن والظروف قد خفقا كثيراً من غلواء طه حسين في هذا الشأن . ففي كتابه (من حديث الشعر والنثر) - وهو متأخر - كثيراً عن كتبه عن الشعر والتمثيل والفكر اليوناني - نراه يردد ما قرره الجاحظ وغيره من أنصار العرب من أن اليونان لاحظ لهم إلا من الفلسفة ، وأن الفرس والهنود لاحظ لهم إلا من الحكم السائرة ، فأما الأدب العربي فهو الأدب حقاً الذي يظهر فيه هذا الشعر الخصب المتميز ، الذي لا تكلف فيه ولا صناعة ، فيكفي أن أن يوجه العربي فكره إلى المعنى حتى يتدفق الشعر على لسانه . والأدب العربي هو أدب الخطابة الذي أنتج الإمام علياً وزيداً ، والحجاج ، وهو الأدب الذي أنشأ الحكم والأمثال السائرة .

(١) المصدر نفسه ص ١٨

م (٤)

على أن الدكتور طه حسين - وهو يردد مقاله أنصار الأدب الغربي المغالون في تقديره وفي إنكار ما لآداب الأمم الأخرى من قيم كان متدلاً فلم يجز مع أنصار الحديث الذين يقولون إن الشعر العربي فقير بالنسبة للشعر الأجنبي ، فليس فيه شعر قصصي ولا تمثيلي ، كما كان عند اليونان . بل حاول أن يثبت أن مزايا كثيرة من خصائص الشعر القصصي موجودة في الشعر العربي . وأكد أننا لانعرف شعراً يصور حياة الأمة أصدق تصوير ، ويضطرنا أن نلمسها بأيدينا كالشعر العربي^(١).

وخطا طه حسين خطوة أخرى في إنصاف الأدب القصصي عند العرب . وفي تقديره أن في هذا الأدب العربي القصصي جمالاً ليس أقل من جمال الألياذة والأوديسا . وليس ذنب الأدب العربي إلا " يقرأه الناس ولا يعرفوه"^(٢) .

ولا شك أن الدكتور طه حسين قد أغرم بالفكر اليوناني والثقافة اليونانية واللغة اللاتينية غراماً شديداً بحكم الدراسة التي تلقاها في فرنسا ، فقد تعلم اللاتينية في أول بعثته بباريس ، كما تعلم بجانبها الفرنسية التي كانت لغة دراسته في جامعات فرنسا ، والتمس له معلماً خصوصياً يعينه على تعلم اللغتين على الرغم من كونه محدود الموارد^(٣) . وفي مسيل استعداداه لديبلوم الدراسات العليا في العاصمة الفرنسية ، أراد له أستاذه أن يدرس القضايا التي أقيمت في روما على حكام الأقاليم الذين أهانوا جلال الشعب الروماني ، وغضوا من شرفه ، كما صورها في تاريخه المؤرخ الكبير « تاسيت » . وذكر

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٤ ، ١٥

(٢) من حديث الشعر والنثر ص ١٥

(٣) طه حسين للألوسي ص ٥٤

له الأستاذ طائفة من الكتب الضرورية له كرجع لبحشه ، فلما عجز عن شرائها اشتراها لحساب الجامعة المصرية ليعيدها إليها عند عودته ، فقبات الجامعة ذلك (١) .

ولما هاجر طه حسين - لظروف معينة - إلى جامعة مونبيليه ليكمل دراسته ، درس اليونانية وآدابها وتاريخها وفكرها ، فاجتمعت له بذلك أسباب المعرفة للفكر الروماني والفكر اليوناني .

والحق أن طه حسين في باريس وهو يدرس اللاتينية كان قد عرف شيئاً عن الفكر اليوناني ، فقد وجهه أستاذه إلى كتاب « نظام الأثينيين » لأرسطو ليقراه ويفيد منه (٢) . ولما عاد طه إلى مصر قام بتدريس تاريخ اليونان في الجامعة (٣) المصرية ، وهو شطر من عمله بالجامعة أول الأمر ، أستاذاً للتاريخ القديم : اليوناني والروماني (٤) .

ولقد أعجب طه حسين بأرسطو وبكتابه : (نظام الأثينيين) إعجاباً شديداً ، فقام بترجمته وصدر عن مطبعة الهلال سنة ١٩٢١ في تاريخ متقدم ، وأعيد طبعه في دار المعارف في تاريخ متأخر .

ومن هنا نعرف أن أثر دراسة اليونان والرومان في فرنسا كان بالغاً عند طه حسين . فلم يكن بعد عودته من فرنسا سنة ١٩١٩ ، وترجمته لكتاب نظام الأثينيين سنة ١٩٢١ غير عامين اثنين مما يؤكد استغراقه في جو الثقافة الإغريقية إلى حد بعيد ...

(١) المصدر نفسه ص ٥٧

(٢) نظام الأثينيين لطح حسين ص ٧

(٣) المصدر نفسه ص ٧

(٤) كتاب : إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين ص ١٤

وصنع طه حسين لهذا الكتاب مقدمة طويلة قاربت الأربعين صفحة تحدث فيها عن أرسطو حديثاً شائقاً ممتعاً مفصلاً ، وتحدث فيها عن الكتاب وقيمه العلمية والفنية ، لأن المشتغلين بالتاريخ السياسي والنظامي قد ظفروا منه شيء لا يكاد يقوّم ، (لأن الكتاب يذكر التاريخ السياسي والنظامي لأثينا منذ أواخر القرن السابع إلى أواخر القرن الرابع قبل المسيح ... على أن هذا الكتاب مع أنه علمي لا يخلو من جمال فني . ومصدر هذا الجمال هو نفس هذا الإيجاز . فكثيراً ما ترى أرسطاطاليس قد خط بقلمه جملة صغيرة ، فأوضح بها ناحية من نواحي الحياة الأثينية ، كأنه قد أرسل عليها من النور نهراً مضيئاً ...) (١) .

ولم يقل لنا طه حسين صراحة إذا كان قد نقل هذا الكتاب عن اليونانية مباشرة ، أم نقله عن الفرنسية التي ترجم إليها . والراجح أنه نقله عن الفرنسية ، أما بعض الألفاظ اليونانية الكثيرة التي أبقاها المترجمون الأوربيون فقد أبقاها هو أيضاً على حلتها مثلهم ، لأنها تدل على معان قديمة لم يعرفها المحدثون من الإفرنج والعرب .

ويبدو أن تمكن طه حسين من اليونانية واللاتينية وتاريخها والفكر فيها قد جملة دائماً كثير الثقة بما يقوله ويكتبه في هذا الميدان . فقد كان ثاني درس ألقاه بالجامعة المصرية القديمة إثر عودته سنة ١٩١٩ عن تاريخ اليونان ، وهو الموضوع الذي اختاره على مدار العام الجامعي كله ، فاستعان بالجغرافية والخرائط التي كان يشير إليها وحده بلا معين - على الرغم من ظروف عاهته - بما انتزع إعجاب الكبراء والمسؤولين والطلاب .

والحق أن تأثر طه حسين بالثقافة اليونانية والأدب اليوناني قد أخذ يظهر بجلاء في إنتاجه التأليفي . فقد سبق كتابه عن « نظام الأثينيين » الذي نقله عن أرسطو والذي صدر سنة ١٩٢١ كتاب قبله صدر سنة ١٩٢٠ - أي بعد عودته من فرنسا بعام واحد - وهو كتاب : (صحف مختارة من الشعر التمثيلي عند اليونان) الذي صدر عن مطبعة الهلال .

وإذا كان هذا هو الكتاب الأول الذي أخرجه طه حسين في موضوع يتصل بالأدب اليوناني ، والشعر التمثيلي عند اليونان ، فقد سبق ذلك (دروس التاريخ القديم في الجامعة المصرية) وهي الدروس والمحاضرات التي ألقاها على طلابه في الجامعة ما بين سنتي ١٩١٩ ، ١٩٢٤ حيث صارت الجامعة القديمة جامعة حكومية بعد أن كانت جامعة أهلية سنة ١٩٢٥ ، فعين طه حسين في الجامعة الجديدة أستاذاً لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب (١) ، ومن هنا نعرف أن ظهور الشخصية اليونانية في مؤلفات طه حسين ودراساته كان في مجال التاريخ لليونان أولاً ، ثم تلاه بعد ذلك دراسة الشعر التمثيلي عند اليونان بعرض نماذج منه مترجمة بقله ، ومصوغة في قوالب أدبية عالية . ثم جاء بعد ذلك كتاب (نظام الأثينيين) الذي ترجمه عن أرسطو ، فكان أول ترجمة عربية لهذا الكتاب الذي استكشفت أصوله الخطية على أوراق البردي في بعض المقابر بمصر سنة ١٨٩١ ، حيث نقل إلى المتحف البريطاني يومئذ ، وأخذ الباحثون الأوروبيون يشتغلون بترجمته إلى لغاتهم ، إلى أن جاء الدكتور طه حسين بعد ثلاثين عاماً من كشف هذا المخطوط الثمين فنقله إلى لغة الضاد ...

(١) إلى طه حسين ص ١٤

وإذا كان عام ١٩١٩ قد شهد في مصر وفي المكتبة العربية مولد محاضرات طه حسين ودروسه في تاريخ اليونان ، فإن هذا العام نفسه أيضاً قد شهد في مصر مولد كتاب : (الظاهرة الدينية عند اليونان ، وتطور الآلهة ، وأثرها في المدنية) ، وقد نشر ضمن كتاب (آلهة اليونان) وطبعته مطبعة المنار سنة ١٩١٩ في ست وتسعين صفحة ، وقد سقط هذا الكتاب من (معجم المطبوعات العربية) ليوسف سركيس ، كما سقط من الجزءين الملحقين به وعنوانها : (جامع التصانيف الحديثة) ، لولا أن أشار إليه جامع كتاب : (إلى طه حسين في عيد ميلاده السبعين) الصادر عن دار المعارف ١٩٦٢ ، وكتاب (طه حسين بين أنصاره وخصومه) لجمال الدين الألوسي وهو يعقد ثبثاً خاصاً بمؤلفات الدكتور طه حسين .

و حين أصبحت الجامعة المصرية الأهلية جامعة حكومية تابعة لوزارة المعارف سنة ١٩٢٥ ، وعين طه حسين أستاذاً لتاريخ الأدب العربي فيها كان استهلال إنتاجه في الفكر اليوناني والروماني كتابه (قادة الفكر) الذي صدر عن مطبعة الهلال سنة ١٩٢٥ ، ثم أعيد طبعه بعد ذلك مراراً . ولقد حاول طه حسين - بما له من نفوذ أدبي وصلات مع المسؤولين في وزارة المعارف - أن يقرر دراسة هذا الكتاب في المدارس ، تعميماً لنشر دراسات عن الفكر اليوناني خاصة بين طلاب المدارس ، فطبع الكتاب طبعات مدرسية مضبوطة بالشكل التام .

والحق أن هذا الكتاب قد عرف شدة الأثر والفكر في مصر والعالم العربي برجال من اليونان والرومان من أمثال الشاعر هوميروس صاحب

«الإلياذة» ، والفلاسفة سقراط ، وأفلاطون ، وأرسطو ، والحاكم الفاتح إسكندر المقدوني ، والحاكم الغازي الروماني يوليوس قيصر .

وقد يقال لأول وهلة : وما دخل الإسكندر ، ويوليوس قيصر في الفكر اليوناني والروماني ؟ وقد أثار طه حسين نفسه هذا السؤال بقوله : (لعلك تعجب حين تراني أحدثك عن الاسكندر الفاتح ، في كتاب يبحث عن قادة الفكر ولعلك تسأل : ما بال قائد من قبواد الجيوش يخطب بهؤلاء الذين لم يتسلطوا إلا على العقول ؟) (١) . وقد أجاب طه عن هذا التساؤل بتقريره بأن الإسكندر لم يكن قائد جيش ليس غير ، وإنما كان قائد فكر قبل كل شيء ، وبعد كل شيء ، وفوق كل شيء (٢) ... فالإسكندر لم يكن يريد فتح الأرض والبلاد وحدها ولكنه أراد مع هذا أن يفتح العقول ، فقارب بين الشرق والغرب في التفاهم والتعاطف ، ومزج العقل الشرقي بالعقل الغربي ، وكان عمله في نشر الفلسفة اليونانية في أقطار الأرض كلها عملاً يؤهله لأن يكون أشد قادة الفكر القدماء إنتاجاً ، وأكثرهم نفماً ...

ولا يقل يوليوس قيصر عن الإسكندر شأناً في هذا المجال ، فهو مكمل للإسكندر في نشر الفكر اليوناني الذي ورثه الرومان عن اليونان . والحق أن كتاب (قادة الفكر) لطه حسين قد عرف القراء العرب بالثقافة اليونانية ، وبالفكر اليوناني تعريفاً واضحاً دقيقاً . وإذا كان بعض الحكماء ومؤرخي الفلسفة العرب قد ترجموا لنا سير عشرات من رجال

(١) قادة الفكر طبعة سنة ١٩٣١ ص ٢٠٥

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٩

الفكر اليوناني والأجنبي القديم ، كالذي فعله « القفطي » في كتابه (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) ، وكالذي صنعه ابن أبي أصيبعة في كتابه (عيون الأنباء ، في طبقات الأطباء) ، فإن طه حسين استطاع - في فهم عميق للتاريخ اليوناني والحضارة الاغريقية - أن يعرض لنا الفكر اليوناني مجلواً أحسن جلاء ، مع بيان اتجاهاته وتطوره ، وقيمه العالية ، والظروف السياسية والاجتماعية التي أحاطت به أو أثرت فيه .

ولم يجعل الدكتور طه حسين كتاب (قادة الفكر) آخر إنتاجه الفكري فيما يتصل بالأدب اليوناني والثقافة اليونانية ، ففي سنة ١٩٣٩ - والحرب العالمية الثانية تبدأ نذرهما للعالم بشر مستطير - نراه يصدر كتابه : (من الأدب التمثيلي اليوناني : سوفوكليس) الذي صدر عن دار المعارف . ويتناول هذا الكتاب ترجمة مسرحيات ست لسوفوكليس شاعر المأساة اليونانية المشهور ، والذي توفي سنة ٤٠٦ ق.م . ولا أدري ما الذي حدا بالدكتور طه حسين أن يصدر هذه التمثيليات دون أن يعرف القراء بالشاعر اليوناني الذي ألفها؟ فلقد كان الناس ينتظرون تعريفاً وترجمة ودراسة لهذا الشاعر ولسيرته حياته . ولو أنه فعل لكان ذلك خيراً كثيراً؛ ولعله اكتفى بترجمة الأثر عن الترجمة والتعريف بالموثر نفسه ...

ولم يكتب طه حسين لهذا الكتاب مقدمة تكشف عنه للقراء الذين لا يعرفون شيئاً أو يعرفون قليلاً عن المسرح اليوناني . ولم يكتب في صدر كل تمثيلية من التمثيليات الست تلخيصاً لها أو تعريفاً بها ، ولكنه اكتفى بكتابة أسماء أشخاص المسرحية وزمانها ومكانها في سطور - ما عدا بعض التمثيليات التي عرف بها - في أولها - تعريفاً وجيزاً ، كما فعل في تمثيلية « أياس » ، و « أوديبوس ملكاً » ، و « أوديبوس في كولونا » ، و « فيلوكتيس »

ويمتاز أسلوب طه حسين في ترجمة هذه التمثيليات بالرشاقة والسهولة والتأنق في العبارة ، حتى تكون ملائمة لقيمة هذه الروائع الفنية ، على حد ما يفعل النقلة والمترجمون حين يتأقنون في نقل الآثار الأدبية .

ولعل نقل التمهيدي الذي كتبه طه حسين لتلخيص تمثيلية « فيلوكتيتيس » يعطي القارئ فكرة عن طريقته في التلخيص حيث يقول : (كان فيلوكتيتيس ابن بياس صديقاً لهيرقل بطل اليونان المعروف ، أشهد موته ، وأعاناه عليه ، وورث قوسه وسهامه . وقد سافر مع الجيش اليوناني لحرب طروادة ، فلما كان في بعض الطريق لدغته حية في إحدى رجليه ، وعمل السم في رجله حتى جعلت تنبعث منه رائحة كريهة مؤذية . فضاقت به اليونان ، وظنوا أن الآلهة أرادت به شراً ، وأزمعوا أن يخلصوا منه . فكلفوا أوديسيوس أن ينقله أثناء نومه إلى جزيرة لمنوس ، وأن يتركه فيها وحيداً ، ففعل . وأقام فيلوكتيتيس في هذه الجزيرة الخالية عشر سنين ، شقياً بالآلامه ووحدته . ثم أوحى الآلهة إلى اليونان أن طروادة لن تؤخذ إلا إذا عاد فيلوكتيتيس إلى الجيش وشارك في الحرب بسهام هيرقل . فكلف اليونان أوديسيوس أن يذهب إلى الجزيرة ليأتي بهذا الطريد ، فذهب ومعه نيوبتوليم بن أخيل ، وامتنع فيلوكتيتيس عليها ، ثم انتهى باتباءها . والقصة تمثل ما كان من محاولة أوديسيوس حمل فيلوكتيتيس إلى طروادة ، وامتناع فيلوكتيتيس أول الأمر واستجابته أخيراً^(١) .

ومن الحق أن نقول إن طه حسين قد اهتم بالشخصيات اليونانية القديمة في المجالات المختلفة ، فهو يولي الفلاسفة من أمثال سقراط ، وأفلاطون وأرسطو كثيراً من عنايته واهتمامه . وقد بلغ من إعجابه بمفكر عظيم مثل

(١) من الأدب التمثيلي اليوناني - ص ٣٣٣

أرسطو أن يترجم له في كتابه (قادة الفكر) ترجمة عظيمة شاملة ، كما ترجم له في كتاب (نظام الأثينيين) ترجمة أخرى مفصلة في بضع وثلاثين صفحة من الكتاب الذي ألفه هذا الفيلسوف الكبير .

ولقد كشف طه حسين نواحي جديدة من أرسطو لم تكن معروفة من قبل . فزاد على مكانه العظيم في الفلسفة مكانه في علم السياسة ، حيث عرف المحدثون منه رجلاً آخر لم يكن يعرفه أهل القرون الوسطى ، رجلاً قد حاول درس الظواهر الاجتماعية في المجتمع البشري بنفس المنهج الذي كان يدرس به الظواهر الطبيعية ، والنفسية ، وما بعد الطبيعة . كما كشف طه حسين - نقلاً عن الباحثين في التاريخ القديم - مكانة أرسطو في إتقان النقد الأدبي .

والحق أن تعبيرنا عن طه حسين بأنه كشف هذه النواحي في أرسطو هو تعبير بعيد عن الدقة العلمية . والأولى أن نقول : إن طه حسين قد نقل إلى القراء العرب المحدثين اكتشاف الباحثين الغربيين لنواح جديدة من الرجل الذي أطلق عليه العرب اسم : المعلم الأول ، وكذلك نقل طه حسين عن علماء الغرب قيمة أرسطو في البيان والخطابة والتاريخ .

ونستطيع أن نقرر في اطمئنان أن الدكتور طه حسين بترجمته كتاب (نظام الأثينيين) كان أول من دلنا ، من المفكرين العرب ، على مكانة الفيلسوف أرسطاطاليس في التاريخ .

ولا يتم طه حسين في الفكر اليوناني بالفلسفة وحدهم ؛ فهـ و عظيم الاهتمام بشاعر مأسوي مثل سوفوكليس وينقل إلى العربية بضعاً من تمثيلاته .

وهو عظيم الاهتمام بكاتب من كتاب السير والتراجم مثل « بلوتارك » - أو « فلوترخس » كما عربه طه حسين - صاحب كتاب (العظماء) : (الذي ترجم فيه لعظماء الرجال من اليونان والرومان ، والذي كان له في العصر

القديم ، وفي القرون الوسطى ، وفي أول هذا العصر الحديث ، أثر لا يكاد يعدله أثر ، والذي مازال نقرؤه الآن بلذة لاتمد لها لذة ، وعناية لاتشبهها عناية ...) (١) .

ومع تنبه الدكتور طه وتنبيهه إلى القيمة العلمية لكتابات بلوتارك في التاريخ والتراجم ، فإنه فاته أن يشير إلى نزاهته التامة وحيدته المطلقة وهو يترجم للشخصيات الرومانية بجانب الشخصيات اليونانية . ومع أن الرجل كان يونانياً بأصله ومولده وكان يمتاز بهذا النسب « فإنه آثر النزاهة حين تحدث عن شخصيتين متوازيتين إحداهما يونانية ، والأخرى رومانية ، وكان يعقد بين كل شخصيتين موازنة دقيقة نزيهة في كتابه المشهور : (حيوات متوازية) .

ولقد بلغ من شغف طه حسين بالثقافة اليونانية ، والأدب اليوناني ، واهتمامه البالغ بها أنه استقبل مسرحية (براكسا ، أو مشكلة الحكم) للأستاذ توفيق الحكيم بترحاب بالغ عظيم . وفرح لأن الحكيم أخذ مسرحيته عن الأدب التمثيلي اليوناني ، وحمد الله على محنة توفيق الحكيم - في عصر من عصور الاستبداد في مصر - لأنها أنتجت للأدب العربي مثل هذه المسرحية في زمن كانت حرية الفكر فيه معطلة عند المصريين . ولنتركه في نص عبارته يقول عن هذه المسرحية : (فلنحمد لمحنة الأستاذ توفيق الحكيم هذه اليسيرة ، فضلها على الأستاذ وعلى قرائه ، وعلى الأدب العربي الحديث ، الذي أخذ يتصل بالتمثيل اليوناني المضحك - هذا النحو الخصب القيم من الاتصال . ولنتمن على الله أن يزيد هذا الاتصال ويقويه ، وأن يكثر أمثال هذه القصة دون أن تدعو إلى ذلك محنة يسيرة أو عسيرة للأستاذ أو لغيره في حرية الرأي . وإن كان كل شيء يدل على أن حرية الرأي لم تأمن

(١) قادة الفكر ص ٧ ، ٨

بعد شر الامتحان ، وعلى أن هذا الامتحان - مهما يكن مؤلماً ثقيلًا - فهو ينتج خيراً لأنه يدفع الأديب إلى التفكير ، ثم إلى التعبير ، ثم إلى النشر (١) .

ثم أخذ طه حسين بعد ذلك يستعرض قصة أرسطوفان أعظم شعراء الملهاة عند اليونان ، ويستعرض قصة توفيق الحكيم التي جرى فيها على نهج أرسطوفان . وندعه يقول في هذا المرض بنص عبارته : (فلنقف إذن عند هذه القصة القصيرة ، بل لنقف قبل ذلك عند أصلها اليوناني . فقد طلب إلينا الأستاذ توفيق الحكيم أن نقرأ قصة أرسطوفان قبل أن نقرأ قصته . وقد عدت إلى قصة أرسطوفان بعد طول عهدي بها ، ثم قرأت قصة الأستاذ توفيق الحكيم ، فحمدت للأستاذ تواضعه واعتداله وإشارته القصد ، واعترافه بأنه لا يستطيع أن يقيس قامته إلى قامته أرسطوفان ...

وأخذ طه حسين بعد ذلك يبين مرامي أرسطوفان وأهدافه من هذه القصة ، التي أراد بها أن يسخر من الديمقراطية ومن الفلسفة معاً ، وأن يجعل أهل أثينا يضحكون من أحب الأشياء إليهم ، وآثرها عندهم - أي من الفلسفة والسياسة . فسخر من أفلاطون وجمهوريته التي تمنأها وتمثلها في كتابه (الجمهورية) ، وسخر من سقراط في قصة السحاب ، وسخر من النظم الديمقراطية القائمة وقتها في بلاد اليونان .

محمد عبد الغني حسن

— للبحث صلة —